مأساة... الهولَنْديّ الطائر!

خريستو نجم

وردَ في الأساطير انّ الهولنديّ الطائر، الذي قتل حبيبتَه غَيرَةً، رسا بسفينته على شاطئ لم تمسّه قدَماه منذ سبعة اعوام. هبط باحثاً عن المراة التي تمنحه حبَّه وتُخلِص له الإخلاص الذي يحرّره مُن لعنةٍ قضتْ عليه بركوب متن البحار إلى الأبد. وما اكثر ما كان اليأسُ من لقائها يستبدُّ به فيصبو إلى الموت... إلى ان ظهرت امراةٌ كانت تحلم بلقائه وتناجي بخيالها المشبوبِ صورتَه المعلّقة منذ مئات السنين على الجدار، عازمةً ان تمنحه حياتَها من أجل خلاصه.

طَريدَ الرّيح من منفى إلى منفى
على ظَهْرِ المُحيطات!
أُكَفِّرُ من عصورِ التيه
عن كُبرى خطيئاتي!
عن الكانت ضَحيَّةَ غَيرَتي
وشُرود ظَنّي واتّهاماتي
غَداةَ لَعَنْتُ حَوّائي وفردَوسي
ونَسْلي في الوليدات!
ولم أحفلْ بذي العرشِ الذي أمْلى
على الدُّنْيا عقوباتي!
لأنّي في ظَلام الشكّ
لم أُتقنْ حساباتي!
فَحينَ طَعَنتُ فاتنَتي
غَرَزْتُ الرُّمحَ في ذاتي!
وضَجَّ الأحمَرُ المسفوحُ
يُنذرُني بويلاتي
ويَجلدُني بصوت الرَّعد
يُعلنُ بدءَ مأساتي!

تموتُ ـ يقولُ ـ من طولِ انتظاركَ
موتَكَ الآتي!
على عجَلاتِ دَهرِكَ سوف تَمضي
عائداً نحوَ البدايات!
خَلاصُكَ بَعدَ ألفٍ ربّما
إنْ تَلتَقي أوفى الحبيبات!
تَجيءُ لتفتَديكَ بموتها
وتفُكَّ وَرْقاءَ السماوات!

* * *

كَذا قالَ الإلهُ!
وسُجِّلَ الحُكمُ المُعَلَّقُ
في النّبُوءات!

* * *

طريدَ الرّيحِ من عصرٍ إلى عصرٍ
ومن بَرٍّ إلى بَحرٍ
بلا بيتٍ ولا أهلٍ ولا سَكَنٍ!
أُسائلُ عن شواطئ مُقلتيكِ
أَحُطُّ في مينائها سُفُني
وأحضنُ تحت هُدْبكِ جُرحيَ العاري
وأمحو لَعنةَ الزمَنِ!

طَريدَ الدَّهرِ من سبعينَ طوفاناً
أُراقبُ كلَّ فَجْرٍ
عَودَةَ الغُصُنِ!
وكم أفنيتُ إزميلي على حَجَرٍ
نَقَشتُك فيه.. كم آمنتُ بالوَثَنِ!
وكم رَوَّيتُهُ دَمعي وأدعيتي
فَلم يسمَعْ ترانيمي
ولم يَنْبضْ ولم يَلِنِ!

زُجاجُك طالما دَقَّتْ عليه يَدي
فما انفَتَحَتْ نوافذُ مُقلتَيكِ
وما أضاءَتْ خَلفها عَدَني!
على كتفيَّ أحملُ منذ آدَمَ صخرَتي
مَنْذا يُسَمِّرُني على جَبَلٍ
ويَرْحَمُني؟

حَنُوطي في يَدي مُرٌّ وعُودٌ
مَن، بحقِّ اللّه، يَدْهُنُني على كَفَني؟
أنوءُ بجَفنك الموصود
يُغلقُ سبعةَ الأبوابِ قُدّامي
ويَطْرَحُني
بأرصفةِ المَرافئِ عارياً
من رُقْعةِ التينِ التي سَقَطَتْ
وخَلّتني بلا وَطَني!

عُصوراً طَوّحَتني الرّيحُ
تَقذفُ مَرْكَبي الجاري.. بلا رُبّانْ
أقولُ شراعيَ المنشورُ يحملُني إليكِ
فَينتهي رَصْدي
ويَهوي البَرقُ من فَوقي
ويَسقُطُ دونيَ الثُعبانْ!

ثلاثاً... مالَ بُرجُ الحوتِ
يُنبئُ عن شهابكِ ساطعاً
في قُبّةِ الأزمانْ!
وأنّكِ تحلمين بموعدي المَضروبِ
فوقَ سفينةِ الأشباحِ والأحزانْ
تَصُدّينَ القَوافلَ من ملوكٍ عاشقينَ
أتَوكِ من إفريقيا
بالعاجِ غَطّى ناهديكِ
وبالدّمالجِ لأْلأتْ في معصَمَيكِ
ومن بلادِ الصينِ واليابانْ!
فَمنْ شانغايَ جاءوا يَطلبونكِ بالحريرِ
ومن ضفافِ الغانجِ...
بالماءِ المُقدّسِ والبَخورِ!
ومن قصورِ الشاهِ بالياقوتِ والمَرجانْ!
يَجُرّونَ الهَدايا نحوَ بابكِ
حاملينَ إليكِ تيجانَ الملوكِ
وخاتَمَ السُّلطانْ!

ثلاثاً.. لاحَ نَجمُكِ هازئاً بالفاتحينَ
مَمالكَ الدُّنيا
وبالغازينَ داري.. من مَغولٍ
أو تَتارٍ، أحرَقوا البُلْدانْ!

سلاماً يا حبيبَةُ...
ساعَتي قد حانَ مَوعدُها
على ما جاءَ في الرؤيا
وفي الأحبارِ والكُهّانْ!
كتابٌ أنتِ مَوقوتٌ عليَّ
لتَكسري خُبزَ الهَوى
وتُشاركيني الخَمرَ والقُربانْ!

حَنانَكِ... أبعدي شَفَتَيكِ عن كأسي
فكأسي مُرَّةٌ... من أوّلِ العُمُرِ!
أُعيذُكِ من مصيرِ سفينتي
أنْ تُبحري فيها إلى قَدَري!
يَعزُّ عليَّ أنْ تُرخي جُفونَكِ للرياحِ
وتُطلقي الأهدابَ في أثَري
وتَسْتَلْقي جواري
تَسْدُلينَ الشَّعرَ من فَوقي
لِتَحْميني من الخَطَرِ!

يَداكِ على يدي
في عَوْدَةِ البَحّارِ للمَرْسَى
ورَجْعِ الضوءِ للقَمَرِ
ولَملَمَةِ الشِباكِ عن البحورِ
وعَودَةِ العصفورِ من سَفَرِ!

* * *

طَريدَ الرّيحِ من مَنفَى إلى مَنفَى
رَهينَ الصَّحْوِ والمَطَرِ
أُكَفِّرُ من عصورِ التِّيهِ
عن شَجَري وعن ثَمَري!

كذا قالَ الإلهُ!
ونُفِّذَ الحُكْمُ المُعلَّقُ
في بَني البَشَرِ!

بيروت